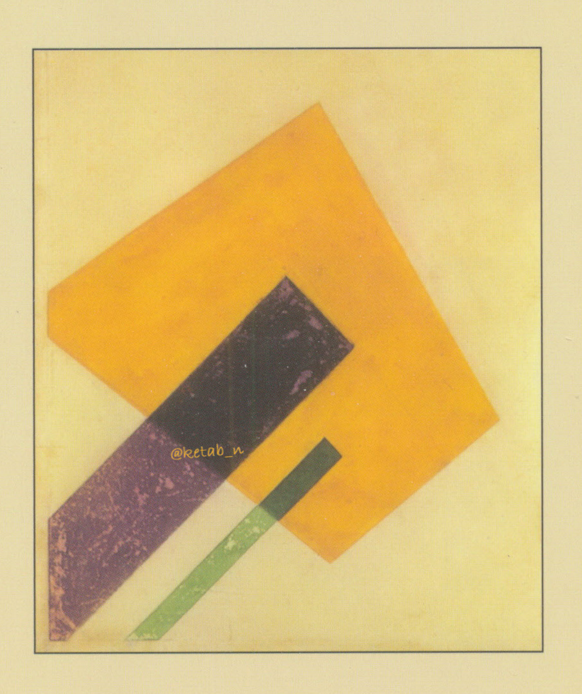


آني إرنو

الاحتلال



ترجمة: إسكندر حبش

منشورات الجمل

رواية

آنـي إرنو

الاحتلال

روايـة

ترجمة: إسكندر حبش

منشورات الجمل

آني إرنو، الاحتلال، رواية

آني إرنو، روائية فرنسية معاصرة. أمضت شبابها في «إيفيتو» في منطقة النورماندي. حائزة «الأغريغاسيون» في الآداب الحديثة، مارست التدريس في «أنيسي» و«بونتواز». تعيش اليوم في «سيرجي» بمنطقة «لو فال دواز». فازت روايتها «الساحة» بجائزة «رونودو» (١٩٨٤).

إسكندر حبش، شاعر وناقد ومترجم لبناني، مواليد بيروت العام ١٩٦٣. أصدر عددا من المجموعات الشعرية والعديد من الترجمات الشعرية والروائية. له كتابان في النقد. صدر له عن منشورات الجمل: لا أمل لي به بهذا الصمت، شعر (٢٠٠٩).

آني إرنو: الاحتلال، رواية، ترجمة: إسكندر حبش، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Annie Ernaux: *L'occupation*, Roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدمة

بدون أدنى شك، تبدو آني إرنو اليوم، واحدة من أكثر الروائيات الفرنسيات حضورا وأكثرهن شهرة على الساحة الأدبية الفرنسية المعاصرة. فكلّ كتاب من كُتبها، لا بدّ وأن يسيل الكثير من الحبر والمتابعات الصحافية والنقد. ربما يعود ذلك إلى موضوعاتها التي تتقاطع مع سيرتها الذاتية. هذه السيرة التي بدأت العام ١٩٤٠ في مدينة «ليلبون» (السين - ماريتيم)، حيث نشأت في كنف عائلة متواضعة، في «إيفتو» (منطقة النورماندي). جاء موت شقيقتها البكر بمرض «الدفتيريا» (الذباح أو الخانوق) - قبل مولدها - ليسمّ حياتها اللاحقة. وبعد أن تابعت دراستها في الآداب المعاصرة، درّست اللغة الفرنسية، وتزوجت في العام ١٩٦٤ من رجل ينتمي إلى البورجوازية الصغيرة. صدرت روايتها الأولى «الخزائن الفارغة» العام ١٩٧٤ واستمرت في التدريس حتى العام ١٩٧٧. وحين انفصلت عن زوجها العام ١٩٨٠ كانت قد أنجبت طفلين. في العام ١٩٨٤

نشرت رواية «الساحة»، كتاب سردي صغير استدعت فيه صعودها الاجتماعي الذي جعلها تبتعد عن أهلها، وتفترق عنهم. جاء كتاب «الساحة» ليشكل العمل - المفتاح، لما عرف في ما بعد باسم تيّار «التخييل الذاتي» - (وإن كان أول من استعمل هذا المصطلح الكاتب شارل دوبروفسكي العام ١٩٧٩) - وقد ترجم إلى العديد من لغات العالم، وليحز جائزة «رونودو». بدءا من ذلك الكتاب، بدأت كتابة إرنو «المينيمالية» تتركز على سبر أغوار الحميمي ، أكان ذلك عبر شكل الرواية «الأوتوبيوغرافية» (السيرة الذاتية) أو عبر شكل «اليوميات»، إذ تخلّت عن كتابة القصة المتخيلة التقليدية، لتركز على تلك «الرواية» المستمدّة «أحداثها» من سيرتها، حيث تتقاطع فيها التجربة التاريخية مع التجربة الفردية. من هنا أصبحنا نجد أن كلّ رواية من رواياتها، تدور حول «تيمة» (موضوعة) معينة. ففي كتاب «امرأة»، (ترجمته إلى العربية الشاعرة المصرية هدى حسين، مثلما ترجمت لإرنو العديد من الكتب الأخرى)، تتحدث الكاتبة عن أمها، وعن الانتظار العاشق في كتاب «شغف بسيط» وعن الإجهاض في كتاب «الحدث»، الخ... عبر لغة خالية من أيّ تزيين أسلوبي.

في روايتها هذه، «الاحتلال»، نجد موضوعة «الغيرة»، التي تنسج حولها قصة جميلة. ذات يوم، تعلم الراوية بأن

عشيقها السابق - الذي كانت قد غادرته هي، رافضة أن تستمر في العيش معه، بعد أن طردته من حياتها، لأنها ترفض بشكل مطلق الحياة التقليدية بين زوجين وبخاصة أن زواجها الذي دام لمدة ١٨ سنة كان أشبه بسجن، وهي تتمتع اليوم بحريتها القصوى - قد اتخذ لنفسه صديقة جديدة. من هذا الخبر، تتولد عندها، غيرة قاتلة، تجتاح كل شيء، لدرجة أن الراوية لم تعد تحتمل هذا الألم الفظيع، الذي يلفها ولا يدعها تفكر بأي شيء آخر، لغاية إعلانها بأنها أصبحت «محتلة» من قبل منافستها وغريمتها التي تؤرقها طيلة لحظات نهارها (وربما ليلها أيضا). ومن هذا الأرق، تكتب إرنو «موتيفات» الهوس والفقدان وعذاب العشق.

على جري عادتها، تلاحق الكاتبة كل تصرفات وعواطف وأحاسيس بطلتها، بكل الدقة التي عرفت عنها، مثلما تلاحق عادياتها لغاية أن تصل بذلك كلّه إلى الحقيقة القصوى التي تطمح إليها. فإذا كانت الغيرة تُعاش - في هذه الرواية - مثل تراجيديا قصوى، إلا أنها تستدعيها أيضا كما لو أنها تلك اللحظة التي يفقد فيها المرء عقله ومنطقه بشكل مضحك وساخر. هل لذلك تدفعنا هذه الرواية، التي تبدو كمأساة، إلى الابتسام في بعض لحظاتها؟ ربما يعود ذلك إلى أن هذه «الانحرافات» العائدة «لعقل مريض»،

مرسومة بفعل المسافة التي تتخذها الراوية عن موضوعها، كما بفضل الرؤية الواضحة التي تتمتع بها والتي تدفعها إلى الابتعاد عن كل تصعيد مفرط لذروة الانفعال. مثلما نجد في تلك المشاهد التي تقضيها وهي تجري اتصالات هاتفية «مجهولة» بكل ساكني العمارة التي تعتقد أن غريمتها تسكنها على أمل أن تسمع صوتها. أو أيضا تلك الجُمل التي تبدو «سخيفة» لكنها تدلّ فعلا عن «هذا الاحتلال» الذي يتغلغل إلى أعماق أعماقها: «وكأنني متّ حقا حين شعرت بأنه يستطيع أن يشاهد عند المرأة الأخرى قناة «باريس الأولى» التي لا ألتقطها في منزلي». لكن عبر ذلك كلّه، لا بدّ للقارئ من أن يشعر بأعمال أخرى، حول الغيرة، وهي تجتاز عقله وروحه، على سبيل المثال لا الحصر، رواية «السأم» لألبرتو مورافيا، أو «السجينة» لمارسيل بروست. لكننا هنا، بالتأكيد، أمام «نسخة» حميمية، أشبه باليوميات الخاصة أكثر من كونها رواية تنحو إلى رسم ذاك «الفريسك الهائل» الذي وجدناه في الكتب الأخرى.

لا تشذّ رواية «الاحتلال» عن المشروع الروائي الذي تعمل عليه إرنو منذ بداياتها: أن تقدم لنا، في كلّ مرة، جزءا من حياة، حدثا «عابرا» أو بالأحرى تفصيلا عاديا من تفاصيل الحياة التي نمرّ بها والتي تشكل جزءا منها (عملية

إجهاض، علاقة شغف كبير، موت الأب. . .) إلا أنها تفاصيل واسمة بكل تأكيد، ربما لأنها في النهاية تشكل مرجعا ما في سلّم الوجود. لحظات هي التي تؤسس بدون شك جوهر الحياة الكبير. «ما من حقيقة أقل من أخرى»، هذا ما تقوله آني إرنو في روايتها «الحدث». حياة متقطعة، تقدمها إلينا الروائية الفرنسية من كتاب إلى آخر، لذلك تبدو رواياتها، كأنها لعبة «بازل»، حيث تشكل كل واحدة منها قطعة منفردة، لكن إن جمعناها معنا، لظهرت أمامنا الصورة (أو اللوحة) بشكل متكامل.

ثمة خاصّية أخرى تتمتع بها إرنو وهي أسلوبها. بالتأكيد تملك الكاتبة أسلوبا خاصا بها. ربما يعتبره البعض بأنه أشبه بأسلوب «اليوميات الحميمة»، أي أسلوب بدون تزاويق أو ادعاءات، من هنا هذه المهارة في أن تجعلنا نعتقد وكأن ما تكتبه - من كتاب إلى آخر - ليس سوى يومياتها الحقيقية ومن دون أي تبديل أو تعديل. ومن كتاب إلى آخر، تنجح إرنو في بناء «عملها» الأدبي، الذي يذهب مباشرة إلى الأساسي، إلى الجواني والداخلي، إلى الحميمي، من دون أي تعقيدات أو التفافات. يذهب عبر هذه الكثافة المكثفة التي تفتح، في الوقت عينه، حقولا متعددة للقراءة الخاصة أمام القارئ.

ربما يمكننا أيضا أن نضيف ميزة أخرى، عند آني إرنو،

أصبحت تظهر بشكل أوضح في كتبها الأخيرة، وهي تقدمها ضمن حقل العلاقة ما بين الكائن الفرد والكتابة. لا نغالي لو قلنا أن الذين سبقوها إلى الغوص في هذا الحقل، لم يذهبوا عميقا في الأمر، مع هذه الرغبة في عدم ترك أي شيء مخفي في الظل. كذلك نجد أن الذين سبقوها، لم يخاطروا كثيرا في عرض ذواتهم الداخلية أمام الجميع، على هذه الدرجة من التعرية، وبالمعنى المزدوج للكلمة. كلما تراجعنا قليلا إلى الوراء، كلما لاحظنا هذا التحول الذي عَبَرَ أدب آني إرنو عميقا وبخاصة مع كتابها «شغف بسيط» العام ١٩٩٢. فإذا كان هذا الكتاب يتحدث عن علاقة غرامية من دون أن تخفي أيّ مظهر من مظاهرها - وربما لذلك بدا يومها وكأنه على قدر كبير من الفضائحية - إلا أن ذلك لم يسقطه في الفجاجة والقسوة مثلما يتبدى عند القراءة الأولى، والسبب في هذه العلاقة التي ألقي الضوء عليها: العلاقة بين الكتابة وبين ما يمكن لنا أن نسميه «التوحشية الأصلية».

إزاء ذلك كله، نجد أن آني إرنو تقترح علينا رؤية ما، ما أتاح لها أن توسع حمولة ما تكتبه، تقول: «يبدو لي وبعد أن اجتزت زمن العمل المكثف، زمن الزواج والإنجاب، وبعد أن دفعت غرامتي بأكملها للمجتمع، ها

أنا أنذر نفسي للأساسي، الذي لم أشاهده منذ المراهقة».
بالتأكيد ثمة تأمل ذو رنين أنتروبولوجي، ولد من هذا الصراع الكبير ما بين الحميمي والاجتماعي. وهو صراع يُشرّعن بالتأكيد مرورها إلى هذه الكتابة البيضاء، التي يجد البعض أنها لا تنتمي مطلقا إلى الأدب، أي كتابة غير أدبية. بيد أن اللغة ذات المظهر «العادي»، و«الكليشيهات» المهترئة التي تستهزئ بها، تبدو لنا في نهاية المطاف بمثابة هذا اللجوء المشترك. أمام ذلك، لا بدّ بدورنا أن نعترف مع ما تقوله الكاتبة بأن «حتى الاستعارات الأكثر استعمالا واهتراءً كانت قد عيشت، ذات يوم، من قبل أحد ما».
هذه الدعوة في الاعتراف بشهادة التجارب المؤسسة الكبرى، تمرّ في كلّ مكان، وإن كانت «محتقرة» في أغلب الأحيان. ربما لأنها تجد نفسها في علاقة آنية مع هذه «التوحشية» الجديدة الخاصة بنا.

من هنا تأتي الكتابة، كما تتصورها آني إرنو، لتحاول أن تتآلف مع بعض الممارسات «الشمانية» (عبادة الطبيعة والقوى الخفية في آسيا الوسطى) كأن تشك تمثالا بالدبابيس (كما تفعل الراوية في الكتاب) كي تصيب هذا الشخص «المجهول - المعلوم» وهنا هو غريمتها. حركة رمزية، لكنها تحرّر، وقد تساعد في الخروج من حالة «الاحتلال» هذه.

إذا كانت كتب آني إرنو السابقة قد أضاءت - وللكاتبة بالدرجة الأولى - ما كان غامضا في كتبها الأولى، «الخزائن الفارغة» و«الساحة»، فإن كتاب «الاحتلال»، وعلى الرغم من قصره وصغره، يمكن له أن يشكل مفتاح هذه القبّة التي تقف تحتها الكاتبة التي تتحدث عن امرأة وعن عصرها.

ومع ذلك كنت أعرف، أنه لو امتلكت الشجاعة
كي أذهب إلى أقصى ما كنت أشعر به، لانتهى بي
الأمر باكتشاف حقيقتي الذاتية، حقيقة الكون، حقيقة
كلّ هذه الأشياء التي لا ينتهي بها الأمر بإدهاشنا
وبأن تسبب لنا الألم.

جان ريس

رغبت دائما في أن أكتب كما لو توجب عليّ أن أكون غائبة عند صدور النص. أن أكتب كما لو كان عليّ أن أموت، كي يختفي بعد ذلك كلّ حكم أخير. ربما، أن ذلك كلّه ليس سوى وهم: الاعتقاد بأن الحقيقة لن تأتي إلا عبر الموت.

كانت حركتي الأولى عند الاستيقاظ صباحا، الإمساك بقضيبه المنتصب من جراء خلوده إلى النوم، البقاء كذلك كما لو أنني كنت متعلّقة بغصن. كنت أظن: «طالما أنني أمسك بهذا، فأنا لن أتوه في هذا العالم». لو فكرت اليوم بما كانت تعنيه هذه الجملة، لتراءى لي أنني كنت أرغب في القول إن ما من شيء أخر أتمناه إلا ذلك، أن تكون يدي قابضة على قضيب هذا الرجل.

إنه الآن في سرير امرأة أخرى. ربما كانت تقوم بالحركة عينها، أي تمدّ يدها وتمسك بقضيبه. خلال أشهر، رأيت هذه اليد وظننت بأنها كانت يدي.

ومع ذلك كنت أنا التي غادرت W قبل عدة أشهر، بعد علاقة استمرت ست سنوات. حدث ذلك بسبب التعب أكثر من كونه بسبب عدم قدرتي على استيراد حريتي، التي عدت وغنمت بها بعد ثمانية عشر سنة من الزواج، من أجل حياة مشتركة رغب فيها بقوة منذ البداية. استمرينا في مهاتفة بعضنا بعضا، والتقينا مجددا من وقت إلى آخر. اتصل بي ذات مساء ليخبرني أنه سينتقل من شقته وبأنه سيعيش مع امرأة أخرى. في البداية كانت هناك قواعد للاتصال ببعضنا البعض - الاتصال فقط على هاتفي النقّال - كي نلتقي. ممنوع أن نتصل مساء أو في نهاية الأسبوع. أدركت، بعد هذا الإحساس بالانهيار المفاجئ، أن عنصرا جديدا قد انبثق. بدءا من تلك اللحظة، اجتاح وجود تلك المرأة كياني. لم أعد أفكر إلا عبرها.

ملأت تلك المرأة تفكيري، صدري، بطني، كانت ترافقني أينما ذهبت، تملي عليّ عواطفي. في الوقت عينه، جعلني حضورها غير المنقطع، أعيش بشكل مكثف. كانت تثير حركات داخلية لم أعرفها من قبل، تثير فيّ طاقة ومصادر إبداع لم أكن أؤمن أنني أجيد القيام بها، كانت تبقيني في نشاط محموم وثابت.

كنت، بالمعنى المزدوج للكلمة، محتّلة.

هذه الحالة كانت تبقي الهموم والمضايقات اليومية بعيدا عني. بطريقة ما، تجعلني خارج إطار تفاهة الحياة العادية. ومع ذلك، ينبغي القول إن الانعكاسات التي تثيرها الأحداث السياسية، الراهنة، لم يكن لديها أي تأثير عليّ. ماعدا قضية تحطم طائرة الكونكورد، بعد إقلاعها، فوق فندق صغير في «غونيس»، إذ ما من حدث من أحداث صيف العام ٢٠٠٠ ترك بصمته عندي. بحثت كثيرا عن واحد، ولم أجد.

من جهة كان هناك الألم، ومن جهة أخرى التفكير العاجز بالاتكاء على شيء غير الاتكاء على حالة هذا الألم وعلى تحليلها.

عليّ، بأي ثمن، أن أعرف اسم عائلتها، اسمها، عمرها، مهنتها، عنوانها. اكتشفت أن هذه المعطيات التي تخفيها الشركات عادة، والتي تحدد هوية الكائن والتي ندّعي - بخفة - وبدون اهتمام بالتحديد الحقيقي للشخص المعني، كانت - على العكس من ذلك - معطيات أساسية بالنسبة إليّ. هي وحدها من يتيح لي بأن ألتقط من بين كل حشد النساء المتشابهات هذا المثال الفيزيائي والاجتماعي، بأن يظهر لي جسد، نمط حياة، بأن أكوّن صورة هذه الشخصية. لكن منذ أن قال لي - بتحفظ - إنها تبلغ السابعة والأربعين، بأنها كانت مدرّسة، مطلّقة، وإن لديها ابنة في السادسة عشرة وتسكن جادة «راب» الواقعة في الدائرة السابعة - انبثق شكلها في خيالي، مرتدية «تايورا» محتشما وتحته قميصا، بينما لا تشوب تسريحتها شائبة، بينما تعدّ دروسها خلف مكتب في ظلال شقة بورجوازية.

اتخذ الرقم ٤٧ مادية غريبة. بدأت أرى رقميه مزروعين في كلّ مكان. رقمان عملاقان. لم أعد أنجح في تحديد النساء إلا وفق نظام الزمن وأعراض الشيخوخة إذ كنت أخمّن عوارضها عليهن، مقارنة بالعوارض التي تصيبني. كلّ اللواتي كنت أستطيع أن أحدّد أنهن بين الأربعين والخمسين، المرتديات هذه «الأناقة البسيطة» التي توحد بين

ساكنات الأحياء الجميلة، كنّ قرينات تلك المرأة.

انتبهت إلى أنني أصبحت أكره كلّ المدرّسات - مع العلم أنني كنت واحدة منهن، كما كنّ كلّهن صديقاتي - إذ أجدهن ذوات سمات محددة، بدون أيّ تصدع. لقد استعدت تلك الفكرة التي كانت عندي عنهن حين كنت طالبة لأنهن كنّ يؤثرن عليّ لدرجة أعتقد معها بأني لن استطيع أبدا أن أزاول المهنة عينها وأن أشبههنّ. كان ذلك جسد عدوتي، المنتشر على مجموع لم يحمل يوما اسمه بشكل حقيقي: الجسد التعليمي.

في المترو، كنت أحسب أيّ امرأة أربعينية، تحمل حقيبة، بأنها «هي»، فأبدأ بالنظر إليها بحسرة. كنت أشعر باللامبالاة التي تُظهرها نحوي كما بحركتها الحيوية، الصارمة، تقريبا، عندما تحاول النهوض من على مقعدها لتنزل في المحطة - التي أحفظ اسمها بسرعة - كما لو أنها بذلك تُعْدِم وجودي، كأنها طريقة ما لكي تستهزئ بي، هذه التي ظننت، طيلة مسافة الرحلة، بأنها امرأة W الجديدة.

ذات يوم، تذكرت J، عينيه اللامعتين تحت شعره المُجعّد، متباهيا بأنه شعر، خلال نومه، بانتعظات دفعته إلى الاستيقاظ. لكن سرعان ما حلّت تلك المرأة مكانه، تلك المرأة التي كنت أراها وأسمعها، إذ ترشح منها شهوانية هزّات الجماع المتكرّرة. بدا الأمر كما لو أن فئة بأسرها من نساء ذوات قدرات إيروسية خارجة عن المألوف، متعجرفات - يشبهن تلك الفئة التي تزين صورهن المشرقة «ملاحق الجنس» في المجلات النسائية خلال أعداد فصل الصيف - تقف أمامي بانتصار، لتطردني بعيدا.

هذا التمادّ لأجساد النساء، الذي كنت ألقاه في جسد تلك المرأة، بقيَّ مستمرا: كنت «أراها في كلّ مكان».

لو حدث ووقعت، وأنا أقرأ زاوية «إبلاغ» في صحيفة «لوموند» أو صفحات الإعلانات السكنية، على إشارة عن شارع «راب»، لشوّش التذكير بهذا الشارع - حيث تقطن المرأة الأخرى - وبطريقة عنيفة، قراءتي التي أستمرّ بها من دون أن أفهم المعنى. ففي داخل محيط غير محدد، يمتدّ من «الأنفاليد» إلى «برج إيفيل»، ليضمّ بين طيّاته أيضا جسر «ألما» والجزء الهادئ من الدائرة السابعة، ذا المقام الرفيع، كانت ثمة مساحة لم أكن لأتجول فيها يوما، مهما اختلفت

الأسباب. منطقة لا تزال حاضرة في داخلي، موبوءة بتلك المرأة الأخرى، حيث أن ريشة منارة برج إيفيل المضيئة - التي ألحظها من نافذة منزلي الواقع على مرتفعات الضاحية الغربية - كانت تشير إليّ بها، وبعناد، كلّ مساء، لأحاول طردها من مخيلتي بانتظام، حتى منتصف الليل.

إن حدث يوما واضطررت، لسبب ما، أن أذهب إلى باريس، إلى الحيّ اللاتيني أو إلى جادة «راب»، فثمة احتمال كبير بأن ألتيقه هناك برفقة هذه المرأة. كنت أشعر بأني موجودة في مكان عدائي، بأني مراقبة من جميع الجهات وبشكل لا يمكن وصفه. كما لو أن ليس لي أدنى حضور، في هذا الحيّ الذي أملأه بوجود هذه المرأة. أشعر بأني شخص خفيّ. كان السير على «بولفار سان ميشال» أو في شارع «سان جاك» - حتى وإن كنت غير راغبة في ذلك - يجعلني أعرض رغبتي الدفينة في أن ألتقيهما. ففي هذه النظرة الكبيرة، المتهمة، التي أحسّ أنها مصوبة نحوي، كنت أجد أن باريس بأسرها تعاقبني على هذه الرغبة.

أروع ما في الغيرة أنها تملأ مدينة، العالم، بكائن لا يمكن لنا أن نلتقيه أبدا.

في لحظات الهدنة النادرة التي أشعر فيها كما من ذي قبل، أو التي أفكر فيها بشيء آخر، كانت صورة هذه المرأة تأتي لتجتازني بغتة. أحس بأن ليس دماغي من ينتج هذه الصورة، بل أنها تأتي لتنبثق من الخارج. كأنّ هذه المرأة تدخل وتخرج من رأسي، على راحتها.

في هذا الشريط السينمائي الذي أستعرضه عادة - تخيّل اللحظات الممتعة القادمة، سهرة ما، عطلة، عشاء عيد ميلاد - تأتي صور منبثقة من الخارج لتحلّ مكان كل هذا التخييل الذاتي الذي يحدس بالمتعة بحياة عادية، كي تثقب لي صدري. لم أعد حرّة بأحلام يقظتي. لم أعد حتى موضوع تصوراتي. أصبحت مملوكة امرأة لم أرها يوما في حياتي، أو كما قال لي شخص سنغالي ذات يوم، بخصوص هذا الهوس الذي يعتقد أنه واقع تحت تأثيره، من جراء أحد أعدائه، أصبحت «مربوطة».

لم أعد أشعر بأني طليقة من هذا الثقل إلا حين أجرب ثوبا أو بنطالا اشتريته للتو، توقعا للقائي المقبل مع W. كانت نظرته المتخيلة تعيدني إلى نفسي.

بدأت أتعذب من افتراقي عنه.

عندما لا أكون محتلّة من قبل المرأة الأخرى، أصبح عُرضة لهجمات عالم خارجي يستبسل في تذكيري بماضينا المشترك، هذا الماضي الذي يملك اليوم حس خسارة لا يمكن تعويضها.

بشكل مفاجئ، تنبثق في ذاكرتي - وبدون كللّ وبسرعة تثير الدوار - صُورٌ من قصتنا المشتركة، تماما مثل مشاهد سينمائية تتشابك في ما بينها لتتراكم من دون أن تختفي. شوارع، مقاهي، غرف فنادق، قطارات الليل، شواطئ ممتدة ومتصادمة. وابل من المشاهد والمناظر يبدو واقعها، في هذه اللحظة بالذات، أمرا مرعبا كنت «واقعة فيه». أشعر بأن دماغي يتحرر عبر قذفات متتابعة مليئة بكل الصور المختزنة من زمن علاقتي مع W بدون أن أستطيع إيقاف

سيلانها. كما لو أن عالم هذه السنوات - وبما أنني لم أثمّن مذاقه الفريد - يَعود لينتقم مني، يصمم أن يبتلعني. أحيانا، يتراءى لي أنني سأفقد عقلي من الألم. بيد أن الألم كان الإشارة عينها على أنني لست مجنونة. لإيقاف حفلة الفروسية هذه، الشنيعة، كنت أعرف أنه يمكن لي أن أسكب كأس كحول كبير أو أن أبتلع حبة «إيموفان».

للمرّة الأولى، بدأت أدرك بوضوح طبيعة الأحاسيس والعواطف المادية، التي كنت اشعر بإلحاحها جسديا، أشعر بشكلها وباستقلاليتها أيضا، بكمال حرية الحركة نظرا إلى وعيي. ثمة معادل في الطبيعة لهذه الحالات الداخلية: تدفق الأمواج، انهيار الجرف، المهاوي، توالد الطحالب. بدأت أفهم ضرورة المقارنات والاستعارات مع المياه والنار. حتى الأكثر استهلاكا منها كان أحدهم قد عاشها ذات يوم.

باستمرار، تعيدني أغنيات أو تحقيقات إذاعية، إعلانات، إلى زمن علاقتي مع W. أن أستمع إلى أغنية "I'll be waiting" («سأكون منتظرة») أو "Juste quelqu'un de bien" («فقط شخص جيد») أو إلى مقابلة مع عثمان سو،

الذي شاهدنا، معا، تماثيله العملاقة فوق «جسر الفن»، كان يسبب لي جفافا في الحلق. أي تذكر للحظة الفراق أو الرحيل - نهار أحد، مذيعة تغادر FIP، الإذاعة التي تكلمت عبرها خلال ثلاثين دقيقة - كان كافيا لأشعر باضطراب. ومثل الذين أحالهم المرض أو الانهيار إلى كائنات هشة، أصبح مثل صندوق ترن فيه جميع أنواع الألم.

ذات مساء، على رصيف المحطة، تذكرت أنا كارينينا في اللحظة التي كانت سترمي فيها بنفسها تحت القطار وهي تحمل حقيبتها الصغيرة الحمراء.

عدت لأتذكر، وبعيدا عن كلّ لحظات قصتنا الأولى، استعمال «كل بهاء» قضيبه، مثلما وصفت ذلك في «يومياتي الحميمة». لم تكن المرأة الأخرى، في نهاية الأمر، التي كنت أراها مكاني، بل كنت أرى نفسي بخاصة، كما لن أكون مستقبلا قط: امرأة عاشقة، وعلى يقين من حبه لي، تقف إلى حافة كل ما لم يحدث بعد بيننا.

أريد أن أستعيده.

أشعر بحاجة قصوى لأن أشاهد فيلما على شاشة التلفزيون بحجة أني لم أستطع رؤيته في صالة السينما. يجب عليّ، لاحقا، أن أقبل بأن السبب لم يكن ذلك مطلقا. ثمة العديد من الأفلام التي فاتتني، ومرورها بعد عدة سنوات على التلفزيون، يتركني لا مبالية. إن رغبت في مشاهدة «مدرسة الجسد» فبسبب العلاقة، بين ما أعرفه من قصة الفيلم - صبي شاب، مفلس، يعيش مع امرأة أكبر منه تكسب قوتها بشكل جيد - وبين العلاقة التي ربطتني مع W، التي تعيش معه المرأة الأخرى الآن.

مهما كان عليه السيناريو، أكانت البطلة تعيش في العذاب، أكانت قصتي التي يجري تقديمها والتي يحملها جسد الممثلة، في تجاوز آسر، كنت أشعر بالراحة تقريبا، حين ينتهي الفيلم. ذات مساء، ظننت أنني أهوي إلى عمق الكآبة وأنا أشاهد فيلما يابانيا بالأبيض والأسود، تدور أحداثه في فترة ما بعد الحرب العالمية، حيث كانت تمطر بدون انقطاع. قلت لنفسي، إنه قبل ستة أشهر، شاهدت الفيلم بمتعة، واجدة في العرض أن هذا الألم الذي لم أكن أعرفه يشعرني بارتياح عميق. في الواقع، لا يفيد التنفيس إلا لمن هم معدومو الإحساس بالشغف.

أن أستمع إلى أغنية "I will survive"، هذه الأغنية التي - وقبل أن يزعق بها الجميع في مدرجات الملاعب خلال بطولة كأس العالم لكرة القدم(*) - كانت تثيرني في بعض الأماسي وأنا أرقص على أنغامها في شقة W، كانت تحجرني. في الفترة التي كنت أنكفأ فيها أمامه، وحدها إيقاعات الموسيقى وصوت غلوريا غاينر اللاذع، الذي أشعر بأنه كان كانتصار الحب ضد الزمن. في السوبر ماركت حيث كنت أسمعها بين إعلانين دعائيين، كانت لازمة المغنية تأخذ معنى جديدا، يائسا: أنا أيضا، يجب عليّ أن «أستمر في العيش».

(*) أغنية للأميركية غلوريا غاينور، تحولت إلى شعار المنتخب الفرنسي في بطولة كأس العالم العام ١٩٩٨، وهي البطولة التي فاز بها المنتخب الفرنسي في ذلك العام. (م)

لم يشأ أن يقول لي لا كنيتها ولا اسمها.

هذا الاسم الغائب كان بمثابة حفرة، فراغ، كنت أدور حوله.

خلال لقاءاتنا التي استمرينا بها، في المقاهي أو في منزلي، كان - وحول أسئلتي المكررّة التي أطرحها أحيانا على شكل فزورة («قل لي الحرف الأول من اسمها») - يجابهني برفض دائم، كان يقول «لن تستدرجيني في الكلام» ليصاحبها بجملة «بمَ يفيدك الأمر لو عرفت؟». ومع أنني كنت مستعدة لأبرهن بشدة أن الرغبة في المعرفة ما هي إلا شكل الحياة والذكاء نفسهما، إلا أنني كنت أجيب: «لا شيء» بينما كنت أفكر «كل شيء». في المدرسة، وأنا طفلة، كنت أبحث، بكل الوسائل، على معرفة اسم هذه الفتاة أو تلك، ممّن أحب أن أنظر إليها خلال الاستراحة، رغم كونها في صف آخر. في مراهقتي، كان أحد الصبيان ممّن كنت ألتقيهم غالبا في الشارع وقد حفرت أول حرفين

من اسمه على مقعد الدراسة. بدا لي أن «وضع اسم»، على هذه المرأة، لكان سمح لي بأن أحدّد - وفق ما كان يوقظه دائما الاسم أو رنينه - شكل هذا الشخص وبأن أمتلك داخليا - وإن أخطأت في ذلك بشكل كامل - صورة عنها. فمعرفة اسم المرأة الأخرى، كان، في هذه الحاجة للوجود التي كنت أشعر بها، يجعلني أستأثر بشيء صغير منها.

اعتبرت أن رفضه العنيد في أن يقول لي اسمها وأن يصفها لي ولو بشكل مختصر، بمثابة خوف مني في أن أعتدي عليها بدهاء أو بطريقة متوحشة، بأن أسبّب فضيحة ما. من هنا ظننت أنه كان يعتبرني إذاً - وهذه الفكرة المسبّبة للسخط، كانت تزيد في آلامي - بأنني قادرة على القيام بأمر سيّئ. في بعض الأحيان، كنت أشكّ أيضا، في شكل عاطفي ماكر: أن يبقيني في هذا الكبت الذي يجرّ خلفه هذه الرغبة فيه التي أشعر بها مجددا. كنت أشعر أيضا بهذه الرغبة في أن أحميه منها، من أن أشطبها من فكري بالكامل إذ كما لو أنها كانت تشكّل شراً بالنسبة إلى عقلي. في حين أنه، وهذا ما يبدو على الأرجح، تصرّف وفق تلك العادة - التي عرفها في صغره كيّ يُخفي على رفاقه في المدرسة إدمان والده على الكحول - أي قرّر

إخفاء كل شيء، حتى أقلّ التفاصيل المريبة التي قد تُفضي إلى الحكم عليها، أي تصرّف، بشكل دائم، مثل المثل القائل «لم أقل شيئا، لم أنحز إلى شيء» ومن هنا كان يستمدّ قوته كخجول معتدّ بنفسه.

أصبح البحث عن معرفة اسم المرأة الأخرى بمثابة هوس عليّ أن أروي غليلي منه مهما كلف الأمر.

نجحت في جعله يعترف ببعض المعلومات. في اليوم الذي أعلمني فيه بأنها أستاذة محاضرات في التاريخ في جامعة باريس الثالثة، أسرعت إلى الانترنت كي أبحث في موقع الجامعة. شاهدت أن بين الأبواب، ثمة واحد خاص بالأساتذة مرتب وفق الاختصاصات، من ثم إلى جانب كلّ اسم، رقم الهاتف. أحسست بشعور غامر من السعادة الجاحدة، عديمة المعنى، إذ ما من اكتشاف ثقافي آخر كان يمكن لي أن أعرفه في هذه اللحظة بالذات. تركت المعلومات تنساب أمامي على الشاشة، وكنت أفقد الدهشة كلّما تقدمت بالأمر: حتى وإن كان عدد النساء، في مادة التاريخ، أقل من عدد الرجال بكثير، إلا أني لم أجد أي إشارة تجعلني أحددها من بين أسماء هذه اللائحة.

كلّ معلومة جديدة كنت أستطيع سحبها منه، سرعان ما كانت تدخلني في بحث قاهر، لكن من دون أن أشعر بالتعب، في مواقع الانترنت الذي شكل استعماله عاملا مهما في حياتي، في أغلب الأحيان. لذلك، حين أعلمني أنها كتبت أطروحة الدكتوراه عن الكلدانيين، أطلقت محرك البحث - ومثلما ظننت - عن كلمة «أطروحة». بعد عدد كبير من «الكبس» على أبواب مختلفة - اختصاصات، أمكنة مناقشة الأطروحات - ظهر أمامي اسم معلمة كنت قد لاحظته في لائحة أساتذة التاريخ القديم في جامعة باريس الثامنة. بقيت مسمرّة أمام هذه الأحرف المكتوبة على الشاشة. أصبح وجود هذه المرأة حقيقة كريهة ولا يمكن محوها. كانت مثل تمثال خارج من أعماق الأرض. بعد ذلك، اجتاحني نوع من الهدوء، يصاحبه إحساس بالفراغ أشبه بذلك الفراغ الذي يعقب الانتهاء من تقديم امتحان.

في ما بعد، كبلني الشك، فبحثت في دليل الهاتف على «المينيتل». وبعد عمليات بحث متعددة، اكتشفت أن هذه المُدَرّسة لا تسكن باريس بل «فرساي»، إذا «ليست هي».

في كل مرّة كانت يجتازني فيها احتمال جديد عن هويّة المرأة الأخرى، يبدو انبثاق هذه الفكرة العاصف والحفرة

التي تحدثها في صدري وحرارة يدي، بمثابة معايير يقين لا يمكن دحضها، كما لو أنها هذا الإشراق الذي يصيب الشاعر أو العالِم.

ذات مساء، شعرت بهذا اليقين أمام اسم آخر موجود في لائحة أسماء المعلمين، فبحثت بسرعة في مواقع الانترنت عمّا إذا كانت صاحبته قد نشرت كتبا لها علاقة بالكلدانيين. تحت الباب الخاص بهذا الأمر كان مسجلا **«نقل رفات القديس كليمان، بحث قيد التحضير»**. اجتاحني الفرح، تخيلت نفسي وأنا أقول لـ W بسخرية مدمرة: «نقل رفات القديس كليمان، ما هذا الموضوع المثير!» أو «ها هو النص الذي ينتظره العالم بأسره! الذي سيغيّر العالم!» الخ. جربت جميع تنويعات الجملة التي أريد منها أن تُسخّف جميع الأشغال التي تعمل عليها المرأة الأخرى. بيد أن ثمة إشارات أخرى ظهرت لتشير إلى عدم احتمال كونها كاتبة هذا البحث، إذ، هناك بداية، الغياب البديهي لوجود أي علاقة بين الكلدانيين والقديس كليمان، بين البابا والشهيد.

تَخيّلتُني أطلب أرقام هواتف المُدرّسات التي نقلتها بعناية، ولأقل - بعد أن انتبهت لضرورة الاتصال بالرقم

٣٦٥١ الذي يسمح بعدم الكشف عن هوية المتصل - «هل أستطيع التكلم مع W؟» لو أصبت، لو أن الجواب كان «نعم» لأفلتُّ بصوت رعويٍّ، مستفيدة من معلومة قالها لي، بغير انتباه، عن حالتها الصحية، صارخة: «حسنا يا سمينتي، هل تحسنت حالة مثانتك المليئة بالخراء؟» قبل أن أقفل الخط.

في مثل هذه اللحظات، كنت أشعر بكل هذا التوحش البدائي الذي يتصاعد مني. أتخيّل كلّ الأفعال التي يمكن أن أقوم بها لو أن المجتمع لم يوقف نبضاتها في داخلي، كأن أفرغ، على سبيل المثال وبدلا من أن أبحث عن اسم هذه المرأة على الانترنت، مشط مسدس بأكمله وأنا أزعق: «أيتها القذرة! أيتها القذرة! أيتها القذرة!» في أيّ حال، هذا أمر كنت أفعله أحيانا لكن بدون مسدس. كان عذابي، في العمق، عدم تمكني من قتلها. أحسد العادات البدائية، المجتمعات الرعوية حيث نخطف الأشخاص، نقتلهم حتى، لنحلّ المشكلة في ثلاث دقائق فقط، متجنبين بذلك تمدّد العذاب الذي أحسبه بدون نهاية. لقد اتضحت بالنسبة إليّ وداعة المحاكم تجاه الجرائم التي تسمى جرائم عاطفية، اشمئزازها في تطبيق القانون الذي يريد معاقبة

قاتل، قانون ينحدر من المنطق ومن حاجة العيش في مجتمع لكنه يخالف واحدا آخر، أساسيا: الرغبة في إقصاء ذلك (أو تلك)، الذي اجتاح جسدك وروحك. كانت رغبتها، الأساسية، في أن لا تحكم هذه الحركة الأخيرة التي يقوم بها شخص واقع فريسة عذاب لا يطاق، حركة عطيل وروكسان.

لأن غايتي أن أعود حرة، أن أرمي خارجي هذا الثقل الذي في داخلي، وكلّ ما أقوم به يسير في هذا الاتجاه.

لا زلت أذكر الفتاة التي غادرها W حين تعارفنا والتي قالت له، بغضب، «سأزرع لك الإِبَر». هذا الاحتمال في صنع تمثال لها من فتات الخبز وملأه بالدبابيس لا يبدو لي فكرة تافهة. لكن، وفي الوقت عينه، يبدو مشهد يديّ وهما يهرسان فتات الخبز، وهما تشكان بعناية مكان رأس شخص آخر أو مكان قلبه، وكأنه مشهد ذو سذاجة تافهة: لا أستطيع أن «أهبط إلى هذا الدرك». ومع ذلك، ثمة إغواء في تجربة الهبوط هذه، فيها شيء يثير الرعب، كأن ينحني المرء فوق فتحة بئر ليرى صورته وهي تهتز في القعر.

فعل الكتابة هنا، ربما لا يختلف كثيرا عن حركة شك الإبر.

بشكل عام، بدأت أقبل بالتصرفات التي كنت أنذّد بها في الماضي أو تلك التي كانت تثير ضحكي. تحولت جملة «كيف يمكن للمرء أن يفعل ذلك!» إلى «أنا أيضا أستطيع القيام به حقا!». كنت أقترب بتصرفاتي وهوسي من بعض «الحوادث المتفرقة»، كما تلك الفتاة الشابة التي أزعجت عشيقا سابقا وصديقته الجديدة، لسنوات، عبر الهاتف، حيث طفح المجيب الآلي، الخ... لو أني رأيت امرأة W بين عشرات النساء الأخريات، فأنا بدوري كنت أراني في كل هؤلاء، الأكثر جنونا والأكثر جرأة، اللواتي «ارتكبن الحماقات».

(يمكن لهذا السرد هنا، بدون علمي، أن يمتلك المهمة عينها من المثالية).

خلال النهار، كنت أنجح في كبت رغباتي. في الليل، تتخلخل تحصيناتي لتعود إليّ الرغبة في المعرفة، بشكل

أكثر إلحاحا، كما لو أنها كانت نائمة بسبب الانشغالات اليومية أو بسبب العقل الذي يوقف نشاطها بشكل مؤقت. كنت، ليلا، أترك نفسي على هواها، ألجمها بشكل أقل ممّا كنت أفعله خلال النهار. كان الأمر أشبه بجائزة ترضية أقدمها لنفسي على «سلوكي الحسن» الذي استمر لفترة طويلة، تماما مثل تصرف البدينات اللواتي يتبعن بعناية، حمية غذائية، منذ الصباح، لكنهن يمنحن أنفسهن لوح شوكولا عند المساء.

أن أتصل بكل سكان البناية التي تقطنها مع W - إذ سجلت على لائحة أسماء وأرقام هواتفهم من على «المينيتيل» - هو أكثر ما أرغب فيه. كان الأمر الأكثر رعبا. لو فعلت، لكنت نجحت، دفعة واحدة، في الوصول إلى وجود هذه المرأة الحقيقي، عبر سماعي هذا الصوت الذي يمكن أن يكون صوتها.

ذات مساء، اتصلت منهجيا بجميع الأرقام، مسبوقة بالـ ٣٦٥١. كان هناك المجيب الآلي، رنين أجراس في الفراغ، أحيانا صوت رجل مجهول قائلا «ألو» لأقفل الخط سريعا. وحين يأتيني صوت امرأة، بنبرة حيادية وحازمة في الوقت نفسه، كنت أسأل عن W، لكن وأمام الجواب

السلبي أو المندهش، أصرخ متعجبة بأني أخطأت بالرقم. هذا التحول، أي المرور إلى الفعل، كان قفزة حماسية في المحظور. كنت أسجل بعناية، إلى جانب كل رقم صفاته التعريفية، رجل أو امرأة، مجيب آلي، صوت متردد. هناك امرأة أقفلت الخط بسرعة عند سؤالي، بدون أن تتفوه بكلمة. كنت على يقين بأنها هي. لكن فيما بعد، لم يبدو لي الأمر وكأنه دليل قاطع. «إنها» على اللائحة الحمراء.

من بين الأرقام التي اتصلت بها، كانت هناك امرأة، أشارت عبر مجيبها الآلي، إلى رقم هاتفها المحمول، دومينيك ل. صمّمت أن لا أترك أيّ فرصة تهرب مني، اتصلت غداة اليوم التالي. «ألو» أعلن صوت نسائي فرح، واحد من تلك الأصوات التي تشي بعدم القدرة على الصبر كما بسعادة تلقيه مخابرة. بقيت صامتة. ردّد الصوت في الهاتف المحمول، الذي بدا فجأة، كأنه في حالة من التأهب، ردّد بشكل إلزامي كلمة «ألو». انتهى بي الأمر بأن أقفلت الخط بدون أن أقول شيئا، بانزعاج وبسحر اكتشاف سُلطة شيطانية سهلة إلى هذا الحدّ، سُلطة أن ترعب أحدا من على بعد بدون أن تتعرض للعقاب.

ليس شرف تصرفي هذا، أو دناءته، ليست رغباتي، إلاّ تساؤلا طرحته على نفسي بهذه المناسبة، لكن ليس بقدر أكبر مما أطرحه الآن هنا وأنا أكتب. يحدث لي أن أصدق بأنه عبر ثمن الغياب نصل إلى الحقيقة المتيقنة.

في هذا الشك وفي هذه الحاجة لأن أعرف أين أنا، ثمة أدلة كنت أبعدتها، تعود لتفرض نفسها بشكل عنيف. كان استعدادي، لأن أربط الوقائع الأكثر تفرقا ضمن تقرير للدوافع ذات الأثر، أمرا خارقا. لذلك، كنت متأكدة - عشيّة اليوم الذي أجّل فيه موعدنا، إذ كنا سنلتقي غداة النهار التالي، وحين سمعت مقدمة النشرة الجوية وهي تختم حديثها عن حالة الطقس، بالقول «نحتفل غدا بعيد مولد من يحمل اسم دومينيك» - بأنه كان اسم المرأة الأخرى: لم يكن يستطيع المجيء إلى منزلي لأنه كان ذكرى مولدها، لأنهما سيذهبان إلى المطعم معا، سيتناولان العشاء على ضوء الشموع، الخ. انبثق هذا التحليل في داخلي بما يشبه البرق. لم أكن أستطيع الشك به. أصبحت يداي باردتان، ودمي «الذي لم يسل في عروقي سوى دورة واحدة»، حين سمع باسم «دومينيك»، أكد لي هذا الأمر.

يمكن أن نلاحظ في هذا البحث وفي هذا التطابق الجنوني للأدلة، تمرينا فاسدا عن الذكاء. بالأحرى أرى فيه مهمته الشعرية، المهمة عينها التي نراها في العمل الأدبي، في الدين والبارانويا.

ومع ذلك، أكتب الغيرة مثلما أحياها، وأنا ألاحق الرغبات واراكمها، الأحاسيس والأفعال التي كانت أحاسيسي وأفعالي في تلك الفترة. إنها الطريقة الوحيدة أمامي كي أعطي مادية ما لهذا الهوس. وكنت أخشى دائما أن أترك شيئا أساسيا. الكتابة، في المحصلة النهائية، هي كغيرة من الواقع.

ذات صباح، اتصلت بي F، صديقة ابني. لقد انتقلت إلى منزل آخر، أعطتني عنوانها الجديد، في الدائرة الثانية عشر. دعتها مؤجرتها إلى تناول الشاي، كانت تعيرها الكتب، كانت أستاذة مادة التاريخ في جامعة باريس الثالثة. هذه الكلمات التي انبثقت خلال حديث عادي أثرت بي كما لو أنها صُدفة مدهشة. لذلك، وبعد أسابيع من البحث غير المثمر، أعطاني صوت F الطفولي إمكانية معرفة اسم المرأة الأخرى، أستاذة المادة نفسها في الجامعة عينها التي تُدرّس فيها مؤجرتها. لكني أجد أنه من المستحيل إشراك F في بحثي، أن أكشف عن حشريتي إذ أن طبعها شاذ، أي شغوفة بالتأكيد، لذلك لن يُخفى عنها أي شيء. بعد أن أغلقنا سماعة الهاتف، وعلى الرغم من أنني قررت عدم الانصياع للأمر، لم أنجح في التخلص من إغواء الاتصال بـ F مجددا ومن أن أطلب منها في أن تسأل مؤجرتها عن المرأة الأخرى. إلى حدّ كبير، كانت أولى الكلمات التي

تجعلني أدخل في صلب الموضوع مع F تتشكل في ذهني. في غضون ساعات، قضت استراتيجية هذه الرغبة الملحّة في الاكتفاء على خوفي من أن أعرض نفسي: في المساء، وفي هذه الحالة من التشوش التي تنتهي باقتناعك بأن ليس هناك أي سوء في القيام بما عليك أن تقوم به، بل يتوجب عليك فعل ذلك، طلبت رقم هاتف F بعزم، آملة بحرارة أن تكون في المنزل وأن لا أكون مجبرة على تبديل تحقيقي وأن أستطيع أن ألقي الجملة التي أدرتها في رأسي طيلة فترة بعد الظهيرة: «F، أرغب في طلب شيء منك! شيء يتعلق بالعمل الروائي! هل تستطعين أن تعرفي لي اسم . . .» الخ.

وكما في كلّ مرة كنت أعتقد فيها أني أصبت الهدف، بعد أن أوكلت F بأن تتحرى، شعرت بأني تعبة، فارغة من الداخل، وتقريبا غير مهتمة لا بالفترة التي أعطيتها لها ولا بنتيجة الجواب. إلا أن F أوحت إليّ ببعض الشكوك الجديدة: لقد أعلنت مؤجرتها أنها لم تعرف بتاتا عن أي مُدَرّسة أتكلم. اعتقدت أنها تكذب وبأنها تعرف المرأة الأخرى لكنها تريد أن تحميها بدورها.

كتبت في دفتر يومياتي: «اتخذت قرارا بعدم رؤيته

ثانية». في اللحظة التي كنت أكتب فيها هذه الكلمات لم أعد أشعر بالعذاب وبدأت أمزج بين تناقص الألم العائد للكتابة وبين نهاية شعوري بالاغتصاب والغيرة. ما إن أغلقت الدفتر حتى تملكتني ثانية، الرغبة في معرفة اسم هذه المرأة، في أن أحصل على معلومات عنها، وكلّ هذه الأشياء التي زادت في حدة الألم أيضا.

حين كان يزورني ويدخل إلى الحمام، كانت تشدني - وبطريقة لا أستطيع مقاومتها - حقيبة عمله التي كان يتركها عند مدخل البيت. كنت على يقين بأنها تحوي كل ما أتمنى معرفته، الاسم، رقم الهاتف، وربما صورتها. أقترب بهدوء منها وأبقى مدهوشة أمام هذا الشيء الأسود، تتقطع أنفاسي، من جرّاء الرغبة كما من جراء عدم قدرتي بحملها بيدي. أتخيّل نفسي أهرب بها إلى عمق الحديقة، لأفتحها ولأكتشف ما فيها واحدا تلو الآخر، ولأرمي بها في مكان ما، إلى أن - ومثل نشالي الحقائب - أجد سعادتي.

تراءى لي أنه من السهل معرفة هُويّة هذه المرأة إن ذهبت متخفية إلى مكان إقامتها في شارع راب. ولأتخطى

مشكلة باب المدخل الذي لا يفتح إلا من خلال رقم سري لا املكه، تخيلت موعدا مع الطبيبة النسائية التي تسكن في العمارة ذاتها. بيد أني كنت أخشى أن يراني أكان وحده أم معها، لأكشف بذلك عن حرماني النسائي بأني لم أعد امرأة معشوقة، مظهرة بذلك رغبتي في أن أبقى كذلك. كان بإمكاني أن أستخدم خدمات تحر خاص. لكن هذا الأمر أيضا سيجعلني أظهر رغبتي لشخص لا أحترم مهنته أبدا. يبدو لي بأني لا أرغب إلا في أن أكون أنا من يقوم بذلك أو في أن تتدخل الصدفة لمعرفة اسم تلك المرأة.

العرض الذي أقوم به هنا، عبر الكتابة، عن هوسي وعذابي لا علاقة له البتّة مما كنت أخشاه فيما لو ذهبت إلى جادة «راب». أن أكتب، يعني، بداية، أن لا يراني أحد. إذ كما كان يتراءى لي فعلا أنه من غير المعقول، أنه من المرعب، أن أظهر وجهي، جسدي، صوتي، كل ما يصنع تفرد شخصيتي، أمام نظر أيّ شخص، وأنا في حالتي هذه من الالتهام والإهمال، يبدو لي اليوم أيضا، أنني لا اشعر بأي نوع من الضيق - لا أكثر من التحدي - في أن أعرض هوسي وأسبر أغواره. الحقيقة تقال، أني لا أشعر بأي شيء. إني أجبر نفسي فقط على توصيف هذا المتخيل

وتصرفات هذه الغيرة التي كانت تحاصرني، على تحويل هذا الشخصي والحميمي إلى مادة حساسة وواضحة أكثر من بقائها مجهولة، غير مادية، في اللحظة التي أكتب فيها، إذ ربما تتقاسم بعضها، عندئذ. لا رغبتي ولا غيرتي، هما ما نجدهما في هذه الصفحات، بل هي الرغبة والغيرة وأنا أعمل في اللامرئي.

حين كنت أتصل به على هاتفه النقال - بالتأكيد، لم يعطني رقمه عند المرأة الأخرى - يحدث له أن يتعجب بالقول، «كنت أفكر فيك منذ دقيقة بالضبط!». وبدلا من أن يجعلني هذا الأمر - أي أن أصدق توارد الخواطر هذا - أشعر بالسرور، كانت جملته هذه تكبلني. لم أكن أفهم منها إلا شيئا واحدا: يعني أن باقي الوقت لم أكن في باله. الجملة التالية التي لم أستطع أن أقولها أبدا، كانت بالضبط: من الصباح إلى المساء، لم يكن، لا هو ولا هي، يغادران تفكيري.

خلال المحادثة، كان يقول أحيانا، وبشكل عرضي، «ألم أخبرك بذلك؟»، ليروي، وبدون أن ينتظر مني الجواب، قصة حدثت له، في حياته، في الأيام الماضية، إعلانا عن جديد يخص عمله. سرعان ما كان هذا السؤال

الخاطئ يُشعرني بالغمّ. إذ يعني أنه سبق وروى هذا الأمر للمرأة الأخرى. إنها هي، وبسبب قربهما، مَن له الأفضلية في معرفة ما يحدث له أولا، من أتفه الأمور إلى أهمها. كنت الثانية دائما - في أحسن الأحوال - لكي أعرف. إمكانية المشاركة هذه، في اللحظة عينها، فيما لو حدث له أمر ما، فيما لو طرأت على باله فكرة ما، وهي المشاركة التي تلعب دورا أساسا في راحة أي زوجين وفي استمراريتهما معا، لم أعد أملكها. جملة «ألم أخبرك بذلك؟» كانت تضعني في خانة الأصدقاء والمقربين الذين لا نراهم إلا كل فترة. لم أعد مطلقا لا هذه الأولى ولا هذه المؤتمنة التي لا غنى عنها في كل يوم من أيام حياته. كانت «ألم أخبرك بذلك؟» تعيدني إلى مكاني بصفتي «أذنا» في المناسبات. «ألم أخبرك بذلك؟» كانت: لم أكن بحاجة لأخبرك ذلك.

خلال هذا الوقت كنت أحيا وأنا أتابع بدون كلل، هذا السرد الداخلي، المنسوج من أشياء تمت مشاهدتها وسماعها على مر الأيام، أشياء نوجهها للمعشوق خلال غيابه - توصيف تفاصيلي اليومية التي، وقد انتبهت لذلك سريعا، لم تعد تهمه.

من بين كل الإمكانيات التي تتوفر أمام رجل في الثلاثينيات من عمره، لم يفضل إلا امرأة في السابعة والأربعين، وهذا ما لم أستطع مسامحته عليه. كنت أرى في هذا الخيار، الدليل الساطع، بأنه لم يحب فيّ الكائن الأوحد الذي كنت أظن أنني عليه ولكن تلك المرأة الناضجة مع كلّ ما يميزها في أغلب الأحيان: الاستقلالية الاقتصادية، الوضع الثابت، الخبرة المكتسبة في التأمه(*)، إن لم يكن مذاق ذلك، كما الهدوء الجنسي. تأكدت من أني قابلة للتبدل في سياق النموذج. كان باستطاعتي أيضا أن أقلب هذا المنطق والقبول بأن المحاسن التي أعطاني إياه شبابه لعبت دورا في تعلقي به. لكن لم يكن لدي أي رغبة في إجهاد نفسي بالتأمل الموضوعي. كنت أجد في حبور سوء النية وعنفها ملجأ في مواجهة اليأس.

العزاء الذي يشعرني بتفوق وحيد على هذه المرأة، كان يأتي في بعض المناسبات الاجتماعية، بسبب الاعتراف بعملي، لكني كنت أراه من الخارج. تخيّل الآخرين هذا،

(*) نهج في معالجة العصاب الغاية منه إيجاد صلة واقعية ورمزية بين المريض والطبيب تشبه الصلة بين الأم ورضيعها.

نظرتهم - أكان ذلك مشجعا على الظهور أم ذا نتائج محتملة - والذي يُطري الغرور بشكل كبير، لم يكن يمارس أي سلطة على وجودها. في تفريغ الذات هذه، الذي يُسمى الغيرة، الذي يحيل كل اختلاف مع الآخر إلى عقدة نقص، لم يكن جسدي ووجهي من فقد قيمتهما فقط، بل نشاطاتي أيضا، كينونتي بأسرها. ذهب بي الأمر إلى أن شعرت بأني مهانة لأنه يستطيع مشاهدة فضائية «باريس - الأولى» عند المرأة الأخرى، وهي محطة لا استقبلها. بدأت أشعر ببعض شارات الاختلاف الثقافي، وكأنها سمة متعالية عن اللامبالاة بالأشياء العملية، كأنها لا تجيد قيادة سيارة ولم تحز إجازة السوق، وأنا التي احتفيت بحيازتها، في العشرين من عمري كي أذهب و«أتبرنز»(*) في إسبانيا كسائر البشر.

لحظة المتعة الوحيدة كانت في تخيّل تلك المرأة وهي تكتشف، أنه لا يزال يقابلني، بأنه أهداني لتوه، على سبيل المثال، حمالة صدر أو «سترينغ» بمناسبة عيد ميلادي.

(*) من «برونز»، التعرض لأشعة الشمس، على شاطئ البحر، ليصبح الجسد بلون الشمس.

كنت أجد انحلالا جسديا، أعوم في غبطة الحقيقة الموحى بها. لكن الألم كان يبدل جسدي في النهاية. وأخفف حمولة ألمي، بشكل مؤقت، بتخيّل ألمها.

مساء ذات سبت، في شارع سان أندريه دي زار، عادت إليّ ذكرى عطلات نهاية الأسبوع التي قضيتها معه في هذا الحيّ، بدون فرح حقيقي، في خضوع لطقوس بدون مفاجاءات. لذلك، يتوجب إذا، على صورة الأخرى، على رغبة الأخرى فيه، أن تكونا مجهزتين بقوة سحيقة لتطردا السأم وكل ما دفعني إلى قطع علاقتي معه. في هذه اللحظة، أعترف أن الإست، وهنا إست المرأة الأخرى، كان أهم شيء في العالم.

إنه يدفعني إلى الكتابة اليوم.

بدون شك، إن العذاب الأكبر، كما السعادة الأكبر، يأتيان من الأخرى. أفهم كيف أن البعض يخشونها ويجتهدون تجنبها إذ يحبون باعتدال، مختارين توافقا قائما على مصالح مشتركة: الموسيقى، الالتزام السياسي، بيت بحديقة الخ.. أو عبر تنوع الشريك الجنسي الذي يعتبرونه

بمثابة أشياء متعة لا علاقة لها بباقي أمور الحياة. ومع ذلك، إن بدا لي عذابي عبثيا أو بالأحرى فضائحيا قياسا إلى أشياء أخرى، جسدية أو اجتماعية، إن بدا لي كامتياز، إلا أنني كنت أفضله، في بعض الأحيان الهادئة والمثمرة في حياتي.

أضف إلى ذلك، يبدو لي وبعد أن اجتزت فترة الدراسة والعمل الحثيث، فترة الزواج والإنجاب، بعد أن دفعت ضريبتي للمجتمع، بأنني أكرّس نفسي للشيء الأساسي، الذي غاب عن نظري منذ فترة المراهقة.

ما من كلمة من كلماته كانت بدون قيمة. كنت أسمع في جملة «عملت في السوربون» أنهما «يعملان معا في السوربون». كلّ جمله كانت مادة لفك طلاسم لا تتوقف، لتأويلات كانت استحالة تفنيدها تحيلها عذابا. كانت تلك الجُمل التي لم أكن أعيرها انتباها في البداية تعود إليّ ليلا لتنهشني فجأة بمعنى مضيء وموئس. لقد أصبحت مهمة التبادل والتخاطب، التي نعطيها عادة للغة، في المرتبة الثانية، إذ حلت مكانها إما أن تعني وإما أن لا تعني حبه لها أم حبه لي.

أعددت لائحة بالاعتراضات التي سأوجهها له. كل مأخذ أسجله كان يثير فيّ ارتياحا كثيفا وعابرا. وعندما يتصل بي بعد ذلك بأيام، أمتنع عن أن أعدد له مجموعة هذه العيوب المكبلّة، معتبرة بأن لا أحد يمكن له أن يعترف بهذه الأخطاء من دون أن يأمل بأن في ذلك منفعة

خاصة. في الواقع ليس لديه أي شيء ليطلبه مني، إن لم يكن أن أكف عن إزعاجه.

عبر قدرة الرغبة هذه التي أستعملها كحجة في كل ما يعود عليه بالنفع، كنت أستعيد، وبدون حشمة، كل الكليشيهات والأفكار الموروثة التي تزخر بها المجلات. بهذه الطريقة، كنت أقنع نفسي بأن ابنة هذه المرأة، تحتمل بشكل سيء، وجود عشيق أصغر من والدتها، أو ربما قد تقع في غرامه، أو إن حياتهما المشتركة ستتزعزع، الخ...

خلال تنزهي أو وأنا أقوم بعمل منزلي مستهلك، كنت أكدس البراهين لأثبت له بأنه أوقع نفسه في فخ، بأن عليه أن يعود إليّ. ثمة نقاشات داخلية تتشابك الحجج فيها، من دون أي جهد، وبدون أي نهاية، في حمى بلاغية لا يمكن لأي موضوع آخر أن يثيرها. كل المشاهد الإيروسية التي كنت أقوم بها، إلى ما لا نهاية، في بداية علاقتنا، والتي أتجنب اليوم أن أحلم بها مجددا، إذ لا يمكن لها أن تستعاد، كل أحلام المتعة والسعادة هذه، تركت مكانها لهذا الخطاب اليقيني، العقيم والقاحل، حيث تبدّى لي سماته حين - وبعد أن نجحت في الاتصال به على هاتفه النقال - أحال كل تركيباتي المنطقية إلى عدم، عبر قوله الزاهد والثاقب «لا أحب أن يمارس أحد ضغطه عليّ».

الشيء الوحيد الحقيقي الذي كنت أرغب في قوله، ولم أفعله، كان: «أريد أن اتناكح معك لأجعلك تنسى تلك المرأة الأخرى». أما ما عدا ذلك، وبالمعنى الدقيق للكلمة، فلم يكن إلا تخييلا.

من بين استراتجياتي البرهانية، انبثقت جملة، بدت لي مدهشة بحقيقتها، «أنت تقبل خضوع هذه المرأة مثلما لم تقبل أبدا خضوعي». هذه الحقيقة بدت لي أكثر من كونها حقيقة لا تدحض بل أنها قيلت عبر هذه الرغبة في جرحه، في إجباره على أن يثور ضد تبعية كنت أرغمه عليها. شعرت بالرضا من اختيار الكلمات، من صياغتها المختصرة كما أني رغبت في التلفظ توا بجملتي التي «تقتل»، في أن أنقل جوابي المشغول، المتكامل، من مسرح التخييل إلى مسرح الحياة.

يجب القيام بشيء ما حالا، من دون إعطاء أيّ مهلة. قانون الطوارئ هذا الذي يسم حالات الجنون والألم، كنت أبرهن عنه باستمرار. عليّ أن أنتظر مكالمته الهاتفية المقبلة

كي ألطمه بهذه الحقيقة التي اكتشفتها لتوي ولكي تتضح لي كم أنها كانت لا تحتمل. كما لو أن هذه الحقيقة يمكن لها أن تكف عن كونها كذلك على مرّ الأيام التي تمضي.

في الوقت عينه، كانت الأمل في أن أتخلّص من ألمي من جراء مكالمة هاتفية، من رسالة، من أن أعيد إليه الصور التي تجمعنا معا، من أن أضع ذلك كله، وبشكل نهائي «فوق ذاتي». لكن ربما كانت هناك دائما، وفي العمق، هذه الرغبة في أن أفشل، في أن أحتفظ بهذا الألم الذي يعطي، حينذاك، معناه للعالم. لأن المقصد النهائي لهذه الحركات كان يكمن في إرغامه على أن ينفعل وعلى أن يبقي ذلك رابطا أليما.

غالبا ما كان يرافق هذه الرغبة في التصرف بطريقة أو بأخرى عمليات فرز محمومة. هل أكتب له أم أتصل به هاتفيا. اليوم أم غدا أم بعد أسبوع. أن أقول له هذا أم ذاك. في نهاية الأمر، وبعد أن اشتبهت بعدم جدوى ذلك كله، التجأت إلى القرعة عبر ورق الشدة (الكوتشينة) أو عبر ورقات صغيرة مطوية كنت أسحبها وأنا مغمضة العينين. كان الرضا، أو على العكس من ذلك، الندم الذي

كنت أشعر به وأنا أقرأ الجواب يساعدني على معرفة رغبتي الحقيقية.

إن حدث لي أن لا أستسلم إلى حالة السرعة هذه وأن اؤجل، ليوم أو أكثر، اتصالي الهاتفي به والذي كنت أحترق للقيام به، كان صوتي يرغمني على ذلك، إذ أن الكلمات التي تهرب مني، الكلمات الحيادية أو العنيفة، كانت تدمر الأثر الذي أنتظره من المهلة هذه. كنت أدرك بأن الأمر سيبدو بالنسبة إلى W - وذلك لما هو عليه - بمثابة مناورة ملفوفة بخيط أبيض.

وأمام رفضه بالمناقشة، شلله كرجل عالق بين امرأتين، تجتاحني نفحة من الغضب لتنزع مني هذه القدرة على المحاججة وهذه السيطرة على اللغة: على حافة أن أخرج غضبي على شكل شتائم - «ابقى هناك، أيها الحقير الكبير، مع عاهرتك» - وأنهار بالبكاء.

بعد ظهيرة ذات أحد، ذهبت إلى المسرح برفقة L، الذي صادف مروره في فرنسا، إذ لم أره منذ سبع سنوات.

بعد ذلك تطارحنا الحب على الكنبة في صالة بيت أهله، عبر سلسلة من الحركات كانت تستعاد بشكل تلقائي. قال لي بأني جميلة وبأني أمصّ قضيبه بشكل رائع. في السيارة، وبعد عودتي إلى منزلي، فكرت في أن الأمر لم يكن كافيا كي أشعر بالراحة. شعرت بأن «تطهير العواطف» الذي طالما تمنيته من الفعل الجنسي - إذ ثمة أغنية عائدة لفارس قربيني(*)، تبدو لي معبرة جدا: «آه! ضع عضوك في مؤخرتي/ ولننتهي من هذا الأمر/ آه (الخ) لنتوقف عن الكلام في هذا الموضوع» - لم يحدث أبدا.

[انتظرت كل شيء من المتعة الجنسية، وبخاصة منه هو. الحب، الإنصهار، اللانهاية، الرغبة في الكتابة. ما يبدو لي أن أفضل ما حصل عليه لغاية الآن، هو الجلاء، نوع من رؤية بسيطة للعالم بشكل تلقائي، رؤية منزوعة العواطف].

(*) فارس مسلح بالقربينة.

في الخريف، وخلال مؤتمر متعدد الاختصاصات حيث كان عليّ أن أشارك فيه، لاحظت بين الحضور، في الصف الثاني، امرأة ذات شعر غامق وقصير، بدت لي صغيرة، في الأربعين من العمر، ترتدي «تايورا»(*) غامقا، كانت نظرتها تقع عليّ باستمرار. ثمة حقيبة صغيرة، كتلك التي تعلق على الظهر، كانت موضوعة بالقرب من كرسيها. تيقنت في الحال أنها كانت هي. خلال الحوارات مع المشاركين الآخرين، لم تتوقف نظراتنا عن الالتقاء وعن الاستدارة في هذا الجزء من ربع الثانية التي كان تتقابل فيها. في لحظة النقاش، طلبت الحق في التحدث. بسهولة، وبصوت تسيطر عليه بشكل كامل، طرحت سؤالا يتعلق بمشاركتي لكنها وجهته إلى زميلي قربي. هذه الطريقة الواضحة في تجاهلي، شكلت لي دليلا قاطعا: إنها هي التي - وبعد أن

(*) طقم نسائي يتألف من جاكيت وتنورة من ذات النوع (كأنه بدلة نسائية).

قرأت اسمي في الإعلان عن المؤتمر، الذي علق بدون شك في الجامعات - رغبت في رؤية عمّا أنا عليه. طلبت هامسة إلى زميليّ إن كانا يعرفان هذه المرأة. لم يكن يعرفها أيّ منهما. لم تعد لتحضر جلسات بعد الظهر. وبدءا من هذه اللحظة، رأيت المرأة الأخرى في هذه المرأة السمراء التي كانت موجودة في المؤتمر. أشعرني ذلك بالراحة، بالمتعة حتى. من ثم أحسست بأن كلّ تلك الدلائل غير كافية. إذ بالإضافة إليها - وهي مثبتة بالتأكيد، إذ هناك شهود عليها - هناك أمر أنني وجدت في صالة المؤتمر الجامعي الصامتة هذه جسدا، صوتا، قصة شعر تتطابق مع الصورة التي كنت أحملها داخلي، بأنني التقيت الشخص المثالي، المصنوع والمصان عبر البغض منذ الشهور التي كنت تيقنت فيها ذلك. ثمة بالتأكيد مجال لأن تكون المرأة الأخرى خجولة، شقراء ومجعدة الشعر، وترتدي ثيابا حمراء مقاس ٤٤، بيد أنني لم أكن أستطع تصديق ذلك، لأنها لم تنوجد في مخيلتي أبدا.

ذات أحد، سرت في الشوارع الفارغة لمركز P. كانت بوابة الكرمل مفتوحة. دخلت إليه للمرة الأولى. ثمة رجل

ممدد على طوله فوق البلاط، ووجهه فوق الأرض، متصالب الذراعين، ويرتل بصوت مرتفع أمام تمثال. إلى جانب هذا الألم الذي يسمر هذا الرجل، لم يكن ألمي يبدو لي حقيقيا.

في بعض الأحيان، كنت أعتقد أنه لو قال لي فجأة «سأهجرها وسأعود إليك»، لو مرت دقيقة السعادة هذه المطلقة، هذه الدهشة التي غير المحتملة تقريبا، لكنت أحسست بالإنهاك، بترهل ذهني مشابه لذاك الترهل الجسدي الذي نشعر به بعد هزة الجماع ولسألت نفسي لِمَ رغبت في الحصول على ذلك كلّه.

كانت صورة عضوه وهو على بطن المرأة الأخرى تنبثق بشكل أقل من صورة الحياة اليومية التي كان يستدعيها، بحيطة، بصيغة المفرد بينما أسمعها دائما بصيغة الجمع. بالتأكيد ليست الحركات الإيروسية التي كانت تربطه إليها (إذ أنها تمارس بشكل مستمر على شاطئ البحر، في زاوية من غرفة المكتب، في الغرف التي تستأجر لساعة)، بل رغيف الخبز الذي كان يحمله إليها عند الظهر، الثياب الداخلية المختلطة ببعضها البعض في سلة الغسيل المتسخ، نشرة الأخبار التلفزيونية التي كانا يشاهدانها مساء وهما يأكلان السباغيتي المحضرة على الطريقة البولونية(*). فبعيدا عن نظري، ثمة سيرورة في التدجين، بطيئة وواثقة، كانت قد بدأت تحتويه. فلحظات الفطور الصباحي المشترك، كما

(*) من بولونيا، المدينية الإيطالية = Spaghettis à la Bolognaise

فراشي الأسنان الموضوعة في الكأس عينه، كانت تتبدى لي بمثابة عملية تشبّع متبادل تنعكس عليه، جسديا، وبطريقة غير محسوسة، إذ ثمة مسحة من البدانة الضبابية تعطيها الحياة الزوجية للرجال أحيانا.

إن قوة الترسب الصامت للعادات، التي طالما خشيتها في علاقتي معه، كانت تبدو أمرا منيعا، مبرهنة على عناد بعض النسوة - لدرجة أنهن قد يضطربن، ويشعرن بعدم الرضا، وحتى بالتعاسة - في وضع الرجل الذي يرغبن في التعلق به داخل حقائبهن.

وعندما كنت أشعر بالرغبة في أن أتبادل معه، هاتفيا، بعض الجمل، كتلك التي كنا نتهامس بها من قبل «أتحبين العضو، قولي - لا ليس العضو، بل عضوك»، الخ، سرعان ما أتخلى عن ذلك. سيبدو الأمر بالنسبة إليه بمثابة فجور بارد، لا يستحق أن يحرك قضيبه، إذ أن هذا الرجل متزوج، ترافقه عاهرة، ولكان قد أجابني بالقول: «شكرا جزيلا، لديّ ما يلزمني في البيت».

في بعض اللحظات، وبشكل مضطرد، كان يبدو لي وبسرعة، بأنه يمكن لي أن أوقف هذا الاحتلال، بأن أقطع

هذه الرقيّة، وببساطة، كأن نعبر من غرفة إلى أخرى أو مثلما نخرج إلى الشارع. إلا أن شيئا كان ينقصني - لم أكن أعرف من أين يأتيني - ربما عن طريق الصدفة، من الخارج، أو ربما من أعماق ذاتي.

بعد ظهر أحد الأيام، كنت معه في مقهى من مقاهي شارع «سان فيليب دو رول». ثمة برد ثلجي يلف المكان، والصالة سيئة التدفئة. من المكان الذي كنت جالسة فيه، كنت أرى بالضبط ساقيّ عبر إحدى المرايا البيضاوية الشكل التي كانت تزين، وبشكل غريب، اسفل المِشرب (الكونتوار). كنت قد لبست جوارب قصيرة جدا أما سروالي المرفوع فيظهر من تحته جزءا من البشرة البيضاء. في كل مقاهي حياتي كنت حزينة بسبب رجل. أما هذا المقهى فكان، على جري عادته، مراوغا وحذرا. غادرنا بعضنا في المترو. رحل ليلتقي بالمرأة الأخرى، في شقة لن اعرف مكانها أبدا، سيستمر بالعيش معها بألفتها مثلما عاش معي في شقتي. وأنا أهبط الأدراج كنت أردد على مسامعي، إنه مدمر جدا.

في الليلة التالية، استيقظت وقلبي يخفق بعنف. لم أنم إلا ساعة واحدة. في داخلي شيء من العذاب والجنون عليّ أن أرميه بأي ثمن. نهضت من فراشي واجتزت صالة الجلوس متوجهة على الهاتف. طلبت رقم هاتفه الجوال وتركت له رسالة على المجيب الآلي: «لم اعد أرغب في رؤيتك. ليس للأمر أهمية». وكما في المخابرات التي تجرى عبر القمر الصناعي، سمعت صوتي من على بعد، ونبرتي الخفيفة بشكل خاطئ ترافقها ضحكة صغيرة كدليل على الغباوة. عدت إلى سريري، كنت لا أزال بعد أسيرة العذاب. تأخر الوقت لتناول حبة منوم. بحثت عن صلوات طفولتي وتلوتها، منتظرة بدون شك، التأثير عينه الذي كنت أحسه في الماضي: النجاة أو الطمأنينة. وللهدف ذاته، مارست العادة السرية. كانت مساحة الألم، قبل الفجر، مساحة غير متناهية.

مستلقية على بطني، بدأت بالهلوسة، وتحتي كلمات لها وزن الحجارة الثقيلة، وزن ألواح الشرائع. كانت الكلمات، آنذاك، ترقص وتتجمع، تتفكك، كتلك التي تطفو في كيس المعكرونة(*). عليّ أن اقبض على هذه

(*) ثمة نوع من المعكرونة (وحتى الشعيرية) مصنوعة وفق الحروف الأبجدية.

الحروف بدون أدنى شك، هي هذه الكلمات التي تلزمني كي أتحرر، ما من سواها. خشيت أن تهرب مني. طالما أنها لم تكتب، فسأبقى أسيرة جنوني. أشعلت المصباح ونقلتها على الصفحة الأولى من الكتاب الموضوع على الطاولة بجانبي، جين إير. إنها الخامسة صباحا. لا أهمية للنوم من عدمه. صغت رسالة القطيعة النهائية.

أعدت نقلها بترتيب غداة اليوم التالي، رسالة قصيرة، موجزة، خالية من الاستراتيجيات المعتادة ولا تتطلب أي جواب. فكرت بأني اجتزت لتوي «الليلة والبورجيس الكلاسيكية»، على الرغم من أني لا أعرف حقا معنى عنوان قصيدة فيرلين هذه، التي نسيت مضمونها.

(أن نعطي عنوانا للحظات حياتنا، مثلما نفعل ذلك في المدرسة للفروض الأدبية، ربما كان طريقة في السيطرة عليها؟).

لم يجب على الرسالة. بعد تلك الحادثة، اتصلنا ببعضنا عدة مرات على الهاتف، وبطريقة لطيفة صافية. هذا الأمر انتهى بدوره أيضا.

إن حدث لي وفكرت بقضيبه، أراه مثلما تراءى لي في الليلة الأولى، قاطعا بطنه، على مستوى عيني في السرير الذي كنت ممددة فوقه: قضيب كبير وقوي، محدودب كدبوس عند طرفه. إنه كقضيب شخص مجهول في مشهد أشاهده في فيلم سينمائي.

أجريت فحصا للكشف عن السيدا. أصبح الأمر بالنسبة إليّ بمثابة عادة أشبه بتلك التي كنت أقوم بها في مراهقتي: الذهاب للاعتراف، وكأن الأمر عادة للتطهر.

لم يعد عندي أي رغبة في البحث عن اسم المرأة الأخرى ولا في معرفة أيّ شيء عنها (إلا في هذا التحذير بأنني أبعد مسبقا اهتمام المخبرين المحتملين)[*]. توقفت عن أن أراها في جسد كل واحدة ألتقيها. لم أعد أراها في كل قادمة وأنا أسير في باريس. لم أعد أغير محطة الراديو حين أسمع أغنية «سأكون منتظرة». أشعر أحيانا بأني فقدت

(*) الذين، على سبيل المثال قد فكوا رمز نسق الاختلال الذي استعملته - أكان ذلك عبر الكتمان أم عبر بعض الدوافع الواعية إلى حد ما - في كتابة الأحرف الأولى من الأسماء أم في تحديد الأمكنة الدقيقة جدا.

شيئا ما، تقريبا كذاك الذي ينتبه أنه لم يعد بحاجة لا لأن يدخن ولا لأن يتعاطى المخدرات.

كانت الكتابة بمثابة طريقة لأن أنقذ ذاك الذي لم يكن واقعي أبدا، أيّ ذاك الإحساس الذي كان يتملكني من رأسي حتى أخمص قدميّ وأنا في الشارع، والذي أصبح «احتلالا»، لفترة معينة، انتهت الآن.

انتهيت من عملية إطلاق الوجوه داخل متخيل منذور للغيرة التي كنت فريستها والشاهدة عليها. انتهيت من عملية إحصاء الأماكن المشتركة التي كانت تنساب من دون أي إمكانية عقلية للسيطرة عليها أو لتوصيف كل هذه البلاغة الداخلية الآنية، الشرهة والأليمة، الراغبة في معرفة الحقيقة والسعادة مهما كلف الأمر - إذ أن ذلك هو المطلوب أساسا. نجحت، بالكلمات، في ردم الصورة والاسم الغائبين لتلك التي، خلال ستة أشهر، استمرت في التبرج، في التفرغ لمحاضراتها، في التكلم والتمتع، من دون أن تشك بأنها تعيش أيضا في مكان آخر: في رأس وجسد امرأة أخرى.

عدت إلى مدينة البندقية هذا الصيف. شاهدت مجددا «الكامبو سان ستيفانو»، كنيسة «سان تروفاسو»، مطعم «مونتان» وبطبيعة الحال «الزاتير»، وكل الأماكن التي مررت بها برفقة W لم تعد هناك ورود على الشرفة أمام الغرفة التي سكنتها معه في ملحق فندق «لاكالشينا». الشبابيك مغلقة. في الأعلى، كانت ستارة مقهى «كوتشولو» الحديدية مُنَزلة وقد اختفت اللوحة التي تشير إليه. أخبروني في «لاكالشينا» بان الملحق أقفل أبوابه منذ سنتين. سيتم بعيه بدون شك كشقق. أكملت اتجاهي باتجاه «الجمارك البحرية»، إلا أنني لم أستطع الوصول بسبب الأشغال. جلست إلى حائط «محلات الملح»، هناك حيث الماء يطفو ويتجمع في برك على الرصيف. إلى الجانب الآخر من القناة، على «الجيوديكا»، كانت واجهات «سان جيورجيو» والـ«روتوندور» مغطاة بالدفيئة. وإلى الطرف الآخر تنتصب الكتلة السوداء، الكاملة، لمطحنة ستاكي المتوقفة عن العمل.

أيار - حزيران وأيلول - تشرين الأول ٢٠٠١

هذا الكتاب

بدون أدنى شك، تبدو آني إرنو اليوم، واحدة من أكثر الروائيات الفرنسيات حضورا وأكثرهن شهرة على الساحة الأدبية الفرنسية المعاصرة. فكلّ كتاب من كُتبها، لا بدّ وأن يسيل الكثير من الحبر والمتابعات الصحافية والنقد. ربما يعود ذلك إلى موضوعاتها التي تتقاطع مع سيرتها الذاتية.

